المحاضرة العاشرة

التيارات المختلفة للنظريات السوسيومعرفية

1) تيار التعلم الاجتماعي

في نهاية الستينيات، سيصبح باندورا (Bandura) أحد المنظرين الرئيسيين للتعلم الاجتماعي (social learning theory)، وهي النظرية التي تطرح فكرة العوامل المعرفية والاجتماعية على أنها عوامل محددة للسلوك، على عكس السلوكية التي تقوم على " الملاحظة الموضوعية للسلوكات التي تستجيب للتحفيز (الاشتراط). ستكون هذه النظرية أساس النظرية السوسيومعرفية. مع باندورا، نكتشف أن الفكر له أساس اجتماعي وأن عمليات تفكير الشخص تؤثر في دوافعه وانفعالاته وأفعاله.

تقبل نظرية التعلم الاجتماعي، التي ارتبطت بشكل خاص بباندورا، مبادئ النظريات السلوكية، لكنها تأخذ في الاعتبار الظواهر التي تطرح مشكلة للمفاهيم السلوكية: أي ما يتعلق بشكل أساسي بالمواقف والمعتقدات والتوقعات. سوف تسعى هذه النظرية بشكل خاص إلى تفسير دور التأثيرات الاجتماعية في عملية التعلم. يوسع باندورا المنطق ليشمل أي موقف تعليمي، ويصرح: "بأن التعلم يمكن أن يعتمد أولاً على الملاحظة. أي من خلال مراقبة الآخرين، نأخذ فكرة ما على طريقة إنتاج السلوكات. وهذه المعلومات تستخدم لاحقًا كموجه للفعل". بعبارة أخرى، فإن التعلم عن طريق النموذج هو تعلم سلوك جديد من خلال ملاحظة نمط ما وكذا النتائج التي المترتبة عن هذا النمط من السلوك.

التعلم الاجتماعي هو اكتساب المعرفة (savoirs)، والمهارة (savoir-faire)، التي لم تعد مرتبطة بالبيئة المادية، ولكن بالتفاعل الاجتماعي ذي الطبيعة الأعمق، والذي من خلاله تحدث التمثلات الذهنية للفرد. يسمى أيضًا، التعلم بالنيابة أو التعلم بالملاحظة، ويتميز اكتساب المعرفة هذا بحقيقة أن السلوك المكتسب لا يتم تنفيذه مستقبلا أو تعزيزه بالضرورة. فالملاحظة وحدها كافية لتعديل السلوكات المستقبلية للفرد في اتجاه التحسين ولكن في بعض الأحيان يتم تعزيزها من خلال إعادة التنظيم المعرفي الشخصي، بمعنى أنه يتضمن العمليات الذهنية للملاحظة. يتيح هذا النوع من اكتساب المعرفة العديد من التعديلات على الخصائص المرتبطة عادةً بالتعلم. على سبيل المثال، قد يُنظر إلى التعزيز الإيجابي بالنسبة للفاعل على أنه سلبي من قبل الملاحظ. كما يعتمد الاكتساب على قدرة

الملاحظ على فهم العلاقة بين الفعل والنتيجة، كما يعتمد أيضًا على تحديد إمكانية الاستفادة بنفسه من هذا التعلم، في وضع مماثل.

2) تيار الصراع المعرفي

في المقاربة التي يقدمها جون بياجي (Piaget)، يلعب الصراع بالفعل دورًا غير مستهان به، ولا شك أنه من المهم تذكره قبل مواصلة الحديث عن هذا التيار، لأن آلية التعلم العامة التي حددتها بياجي والمتمثلة في الاستيعاب (Assimilation) والتكيف (Accommodation) والموازنة (Équilibration) تعني بالفعل فكرة الصراع.

يعتبر الاستيعاب تلك الآلية التي يتم فيها دمج الموضوع المراد تعلمه في المخطط المناسب؛ ويبرز مفهوم التكيف على أن هناك عملية "مقاومة" لهذا الموضوع مما يؤدي إلى تعديل المخطط نفسه؛ وتشير الموازنة إلى آلية الضبط بين الاستيعاب والتكيف. يُنظر هنا، إلى المتعلم على أنه محرك العملية كلها ولكنه في أزمة مع وجود صراع يتم حله بالكلمات، في عملية التعلم مع الآخر. وتصبح المواجهة مع الآخرين قابلة للبناء وتسمح للفرد ببناء نفسه من خلال السعي لتحقيق توازن لكل صراع. ثم يُنظر إلى التقدم المعرفي على أنه سلسلة من الاضطرابات وإعادة التوازن. وبالتالي فإن التعارض بين الموضوع المراد تعلمه والمخطط المطلوب لذلك هو ما يؤدي إلى التعلم والتطوير المعرفي. إن تجاوز هذا الخلل المعرفي ينطوي على دمج (تعلم) معطيات جديدة من خلال عدم التوازن الجماعي.

3) التيار السوسيوتاريخي

إذا أرادنا تحديد خصوصية نظرية التيار السوسيوتاريخي لفيجوتسكي (Vygotski) من خلال سلسلة من الكلمات والصيغ الأساسية، فيجب على الأقل ذكر ما يلي: التآنس الاجتماعي(sociabilité) الإنساني، التفاعل الاجتماعي، الإشارة والأداة، الثقافة، التاريخ، وظائف ذهنية أعلى. وإذا أردنا أن نربط هذه الكلمات والصيغ معًا في تعبير واحد، فيمكن لأن نقول إن نظرية فيجوتسكي هي "نظرية اجتماعية تاريخية ثقافية لتطور الوظائف الذهنية العليا"، على الرغم من أن هذه النظرية غالبًا ما تسمى "النظرية التاريخية الثقافية". يتفق فيجوتسكي مع المفاهيم البنائية (بياجي) للتعلم معتبراً إياه بناءًا فعالا للمعرفة، بناء تم تطويره في البيئة المادية ولكن

ربما أكثر عند فيجوتسكي في الاهتمام بالبيئة الاجتماعية للفرد، وهذا ما يميزه عن بياجي. بالنسبة لفيجوتسكي، هناك ارتباط بين النمو والتعلم. يعتمد نمو الطفل على تعلمه، وليس العكس. ما تعلمته هو ما يطورني، وليس العكس (معارضة بياجي ومراحله). علاوة على ذلك، يشير فيجوتسكي إلى أهمية التقليد الذي يلعب دور الوسيط الاجتماعي والثقافي في عملية التعلم.

يفترض فيجوتسكي فكرة ما يسميه "المنطقة القريبة من التطور" أو "منطقة التطور المحتمل" والتي تجعل من الممكن التفكير في نمو الطفل من خلال (الإمكانية / الاحتمال). إنها مسافة بين مستويين من التطور: المستوى الحالي، والمستوى الذي يمكن أن يصل إليه الطفل إذا كان لديه مساعدة من شخص آخر.

النظرية السوسيومعرفية: صياغة آليات العمل والتحكم في المجتمع

الأجانسية (agency) أو الفاعلية:

تظهر النظرية السوسيومعرفية (TSC) على أنها استمرار لأفكار وبحوث ألبرت باندورا. يعتبر هذا الأخير بأن الفرد لا تستجيب فقط للمنبهات (النموذج السلوكي) ولكنه يفسرها. تلعب العوامل المعرفية دورا أساسيا في نظرية ألبرت باندورا. وتجمع الإدراك المعرفي جميع الأنشطة الذهنية وصيرورة المعرفة والوظيفة التي تؤديها.

لقد طوّر باندورا نظريته السوسيومعرفية من خلال مؤلفه "الأسس الاجتماعية للفكر والفعل" (Social Foundations of thought and Action) الذي نُشر في عام 1986. في الواقع، فإن النظرية السوسيومعرفية تلبي عدة أهداف؛ فهم الأفراد والجماعات، تطوير أساليب لتعديل السلوك، واستخدام هذه الأساليب لتعزيز التنمية الفردية. تستند هذه النظرية إلى مفهوم التفاعل. كما تسلط النظرية السوسيومعرفية الضوء على مفهوم الأجانسية (agentivité) بالفرنسية (agency) بالانجليزية والتي تعتبر بالنسبة لباندورا فكرة أساسية في تحليل السلوك الإنساني. من أجل فهم أفضل لهذه النظرية في البداية، سنحدد مفهوم "الأجانسية أو الفاعلية (المفردات الخاصة بباندورا). ثانيًا، سنقوم بتحليل نموذج السببية الثلاثي. نموذج مبتكر في سيكولوجية الأفراد لأنه يأخذ بعين الاعتبار الشخص وكل إدراكه وسلوكه وبيئته.

في الواقع، الأجانسية فكرة مهمة في عمل باندورا، ويتم تعريفها على أنها "هذه القدرة الإنسانية على التأثير بقصد في مجرى حياته وأفعاله". والقصد يسمح بوضع خطط العمل. في الواقع، ليس من الممكن معرفة نتائج أفعالنا مسبقًا، ولكن يمكننا التخطيط لها (planning agency). يوضح مفهوم الأجانسية أو الفاعلية مقاصد الأفراد وتوقعاتهم.

بالنسبة لباندورا، تظهر الفاعلية كمفهومه للفرد الاجتماعي، "الفاعل النشط"، حيث يلعب الفرد دورًا في تطوره الشخصي. ويكتسب القدرة على التكيف والتجديد في مواجهة المواقف الجديدة التي قد يواجهها.

نموذج التبادل السببي الثلاثي

يعيد هذا النموذج العناصر الأساسية لنظرية التعلم الاجتماعي ويدمجها مع عنصر إضافي حاسم: ألا وهو السلوك. في النظرية السوسيومعرفية، يتم تحليل الوظيفة النفسية من خلال علاقة سببية متبادلة ثلاثية. وهذا يعني أن العوامل المختلفة، مثل الشخص والسلوك والبيئة تتفاعل بينها وبطرق مختلفة بصفة دائمة. كما يشير باندورا بأن تأثير هذه العوامل يكون نسبيا حسب الأنشطة والظروف. بالإضافة إلى ذلك، تحدث التفاعلات مع "الوقت" لأن تأثيراتها غير متزامنة، وهذا ما يضطرنا إلى الانتظار لنرى تأثير أفعالنا وبالتالي النتائج. ومن هذا المنظور، يسمح نموذج التبادل السببي الثلاثي في تفسير السلوك الإنساني وذلك حسب المقاربات المختلفة المستخدمة.

من أجل نمو الطفل، وخاصة في طفولته المبكرة، فإن أهم العوامل هي التفاعلات غير المتكافئة، أي التفاعلات مع البالغين الذين يحملون جميع رسائل الثقافة. يعتقد فيجوتسكي أن الأطفال يمكنهم إدراك المشكلات الصعبة وإتقانها عندما يتم توجيههم ومساعدتهم من قبل شخص كفء. وبالتالي، فإن المربي لديه وظيفة مميزة، فلا يتعين عليه انتظار الطفل بناء معرفته بنفسه، في استقلالية كاملة.